«الغرب والآخرون» بأعين الباحثة الفرنسية صوفي بسيس:

نقد ذاتي للنزعة المركزية الأوروبية

منتصر حمادة*

■ «كان الخطاب الأوروبي في عصر الأنوار المروج للحرية والمساواة وحقوق الإنسان، أول مغتصب لهذه الحقوق من خلال حملات استعمارية، اتسمت بتبني نزعة ظلامية، لأنها حرمت نفس الحقوق الإنسانية على الشعوب المستعمرة». لم يصدر هذا التقييم على لسان أحد الباحثين العرب أو المسلمين أو العالمثالثيين، وإنما جاء بقلم الباحثة الفرنسية صوفي بسيس في كتابها الرائع الذي يحمل عنوان «الغرب والآخرون: تاريخ سيطرة». صدر الكتاب عن دار النشر «لادیکوفرت» الباريسية. الطبعة الأولى 2004. الكتاب قراءة تحليلية رصينة في طبيعة علاقة الغرب مع باقي دول العالم، من خلال الاعتماد على مراجع متنوعة تنور فهم تطور موازين القوى في الحقل السياسي والحقل الاقتصادي وأيضا في طبيعة الخطاب المروج من قبل أهل السياسة والفكر. وما يضفي مصداقية كبيرة على قراءة بسيس، دقة ملاحظاتها من جهة، وتبنيها خيار النقد المزدوج، للممارسات الغربية ذات النزعة الإمبريالية ولإفرازات هذه النزعة، وإن كانت تركز أكثر على نقد النزعة المركزية الأوروبية، مما يجعل الكتاب مادة علمية غنية بالنسبة للقارئ الغربي وقارئ الجنوب على حد سواء، أو القارئ الشرقي، إذا استعرنا بعض مصطلحات القاموس الاستشراقي سيء الذكر.

«الغرب والآخرون» قراءة في تاريخ القرون الخمسة الأخيرة، ويبدأ هذا التاريخ، حسب المؤلفة، منذ عام 1492 أي عام «اكتشاف» القارة الأمريكية، (وتتحدث بسيس عن اكتشاف بين مزدوجتين)، وطرد المسلمين واليهود من إسبانيا، حيث سنشهد آلة طرد المنابع الشرقية وغير المسيحية للحضارة الأوروبية. ففي مطلع القرن الخامس عشر اخترعت إسبانيا منظومة «نقاء الدم»، وسوف تتكلف ازدواجية الانتماء للديانة المسيحية وللعرق في شرعنة غزو أمريكا، قبل أن يليها ظهور الخطاب المعادي للزنوج، أو الخطاب الذي يشرعن بدوره العبودية، وقبل أن تتدخل المنظومة العقلانية من أجل تبرير سمو العرق الأوروبي على العرق الأسود.

نحن أمام «اختزال شديد للعرق الإنساني في هوية أوروبية تقوم على رفض كل هوية تشوه صورة نريدها لنا نحن أهل أوروبا». يحدث هذا في وقت تطلع فيه أوروبا على آفاق جغرافية جديدة وعلى تنوع ثقافي وإنساني غير متجانس مع المعتقدات الأوروبية الراسخة قبل رحلات الغزو والاكتشاف.

جرائم ضد الإنسان الأبيض

حتى عصر الأنوار لم يسلم من النزعة العنصرية البغيضة، بحيث أن الحديث عن عالمية الحقوق الإنسانية كان يهم فقط الإنسان الأبيض، وتحديدا «الرجل الأبيض». وسوف تأتي النظرية العلمية التي تتحدث عن سمو هذا الرجل الأوروبي الأبيض من أجل الدفاع عن مصالحه وتغذية شهيته الاستعمارية وهو في كامل قواه العلمية. من أجل جعل العالم أكثر تحضرا، وبالتخلي عن النزعة الإنسانية، أصبح الرجل الأوروبي الأبيض يعتبر نفسه الحارس الخاص لهذه النزعة. ثمة نقد شديد وصريح تمارسه المؤلفة ضد أسطورة «الرجل الأبيض ومهمته الحضارية».

لا تتردد صوفي بسيس في التأكيد على أن قدوم «النزعة النازية» لم يجسد استثناء أو قطيعة عما كان سائدا من قبل، بقدر ما كان استمرارية لنزعة الرجل الأوروبي الأبيض، والذرائع الفكرانية كانت بدورها جاهزة، من خلال الانطلاق من مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة».

كانت المسألة أكبر بكثير من مجرد الحديث عن «تطهير العرق الآري السامي» أو «تأسيس إنسانية عليا، أو نزعة عرقية، وأنا لا أهدف إلى تمييع الشر كما قد يعتقد البعض»، تضيف بسيس، «بل إن المسألة لم تخرج عن كون هذا الشر كان قائما منذ مدة. ولهذا السبب، لا يصح الحديث عن جرائم ضد الإنسان، وإنما جرائم ضد الإنسان الأبيض».

نقد المراجعات التاريخية

فيما يتعلق بالمراجعات التاريخية المنددة بالنزعة النازية، والتي تمت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ترى بسيس أن الوعي الإنساني بفظائع معسكرات الاعتقال الهتلرية، «ما زال ناقصا لأن المفروض أن نعيد النظر في عقلية الاستعلاء الأوروبية. ومن الطريف أننا نندد اليوم بالنزعات العرقية والعنصرية للمنظمات النازية أو أحزاب اليمين، ونحن نتجاهل أن نزعة الاستعلاء ظلت راسخة في اللاوعي الأوروبي وكانت على الخصوص أمرا عاديا من قبل».

لقد ترسخت في الوعي الأوروبي نزعة التفوق والاستعلاء على باقي الشعوب والأمم والثقافات، وهذا يفسر، من وجهة نظر المؤلفة مدى استخفاف المسؤولين الأوروبيين بمطالب الجزائريين والفيتناميين بضرورة الاعتذار عن مجازر سطيف وسايغون في عام 1945. إنه «نقص في الوعي» برأي مسؤولين رسميين. ولا تسلم حتى الأصوات الفكرية المؤيدة لاستقلال المستعمرات من نقد بسيس، مستشهدة في هذا الصدد بإحدى تصريحات الفيلسوف الفرنسي الراحل بول ريكور. ترى المؤلفة أن الهوية الغربية لا يمكن أن تنفصل عن «ثقافة الاستعلاء»، فلا فرنسا ولا الولايات المتحدة ولا بريطانيا جسدت الاستثناء على هذه القاعدة، لأن جميع هذه القوى العظمى تنطلق من هذه الأرضية. «إن الخوف من التخلي عن موقع الهيمنة ـ وهو الموقع الذي أسس طبيعة العلاقة مع العالم ـ أصبح لصيقا بالخوف على الهوية من الاندثار. وخلافا لما أردنا دوما تكريسه كيقين، فإن هذه الثقافة تجسدت عبر أشكال عدة وفي جميع حقب التاريخ. واليوم، ومن خلال الضغط على الجميع من أجل تكريس ثقافة الاختلاف والاعتراف بالآخر، يلجأ الغرب إلى تحديث هذه الثقافة عبر أشكال جديدة من نفي الغير وشيطنته، أو عبر المراوغة والمناورة حول المفاهيم المضللة، من قبيل ابتكار الأوروبيين لمنطق «نحن وهم» كلما تعلق الأمر بالتعاطي مع قضايا الأقليات الأجنبية المقيمة في القارة العجوز».

أمل «العولمة البديلة»

ترى بسيس أن الغرب يبقى مرشحا لأن يهيمن على باقي الشعوب والأمم، وذلك بالرغم من ظهور مراكز قوة جديدة في العالم، مع فارق أن الهيمنة هذه المرة تتخذ أشكالا جديدة ومغايرة عما كانت عليه الأمور من قبل. أما الأمل، عند بسيس، فيكمن في «العولمة البديلة»، التي تفرز بالضرورة نهاية عصر الهيمنة وظهور متعدد لمراكز القوة والقرار، مما سيفضي في نهاية المطاف إلى فقدان الغرب لتفوقه وذبول نزعته المركزية والاستعلائية. ويتجسد ذلك على الخصوص في المظاهرات الشعبية المنددة بالعولمة، والتي، للمفارقة، لا تنظم فقط في الدول العالمثالثية، بل إنها انطلقت أساسا من عقر الغرب ذاته. ويتجسد أيضا في المتغيرات التي مست المعيار الأساسي للثراء، بحيث أصبح لصيقا اليوم بمستوى التقدم الصناعي والتقني وليس بالجغرافيا، وخاصة بعد ولوج اليابان ودول جنوب شرق آسيا عالم التكنولوجيا المتقدمة، حيث أدت المعجزة الاقتصادية لليابان والنمور الآسيوية إلى نوع من القطيعة المفاهيمية مع المفاهيم القديمة والمتهالكة المرتبطة بالثراء.

ثمة إذا مجموعة عوامل تترجم تآكل الهيمنة الغربية من خلال تنامي حصة جنوب شرق آسيا والصين في التجارة العالمية، وإذا علمنا أن القارة الآسيوية تستحوذ لوحدها على ما يقرب من 30 % من الإنتاج العالمي، ونضيف فوق ذلك الخطاب المروج لتصاعد القوة الاقتصادية الصينية خلال السنين والعقود المقبلة، فإن ذلك يؤشر بشكل عملي على تقويض «المركزية الغربية»، وعلى نقد جدي لمنظومة النظام الرأسمالي ومعه الحلم الليبرالي الذي روج له فرانسيس فوكوياما، الأمريكي الجنسية والآسيوي الأصل.

كتاب «الغرب والآخرون» يدفع بقرائه إلى عدم التفاؤل كثيرا بخصوص مصير خطاب الاستعلاء الغربي الذي يعتقد أنه سيد الكون والطبيعة وإله البشر، ويحثنا نفس العمل الجاد على تبني خيار النسبية في قراءة نسق فكري قديم، ظل دوما مختلطا مع النظام الطبيعي للأشياء. كما يساهم هذا الكتاب وبشكل موضوعي في زعزعة العديد من القناعات، ولكنه يخدم الإنسان، لأنه ببساطة يساعدنا في هدم المراجع المريحة، ويفتح آفاق المتلقي نحو فضاءات زمنية وجغرافية أوسع.

صوفي بسيس، تذكروا هذا الإسم جيدا، لأنه يستحق ذلك، من جهتنا نحن على الأقل، هذا إذا كنا نطالب الغرب والغير بأن يكون منصفا مع قراءات شرقية وغربية رصينة أبدعت في تمرير خطاب «النقد المزدوج» لأي نزعة مركزية تعتقد أنها تحتكر حقيقة، تبقى في الواقع، أعقد من أن تختزل في فكرانيات دينية ومذهبية وعرقية لا تمثل إلا نفسها.

* كاتب من المغرب

«اكتشاف الشهوة» لفضيلة الفاروق

حكاية برأسين: سطوة القيد.. ووهم تحرر الأنثى

نورالهدى غولي*

■ تتحيّن فضيلة الفاروق كل فرصة تتاح لها من أجل إعادة ترتيب الأفكار التي تؤمن بها، والتي ترغب في أن تترك لها حيزا واسعا في ذهن القارئ العربي عامة والجزائري بصفة خاصة.. هي طبعا لا تنتظر من يمن عليها بفضاء معيّن من أجل البوح، فها هي تقذف في وجه ذهنيات تراها مغلقة روايتها الجديدة «اكتشاف الشهوة» الصادرة عن دار رياض الريّس بلبنان، في انتظار طبعة جزائرية..

الكتابة عند فضيلة الفاروق بوح لصيق بالذات، لم تختلف اكتشاف شهوتها كثيرا عن مزاج مراهقتها الأولى.. لا تزال قسنطينة حاضرة بكل زخم عاداتها وحاراتها وحزنها الفائض عن كل إطار.. لا تزال «لوتة» الحديث عن عشق المدن مستفحلا بها، هي التي لا تتخلى عن هامش الجسور المعلقة الذي يشبه إلى حد كبير هامش الكتابة والتمرد عندها.

لو جاز لنا أن نقسّم الرواية إلى فصول، وهذا ما تجنبته الكاتبة، لوجدنا أنفسنا عند حدّ يفصل الحكاية إلى شطرين.. مع خيوط رفيعة تشي بتماسك الخيال والواقع رغم الشرخ الفاصل بينهما، والبادي للعيان بقوة، خاصة مع طرح تقدمه الكاتبة، وبإصرار قويّ منها على تعديل مجرى الأفكار البالية التي أخذت لها نهرا جارفا منذ عصور بائدة..

«باني».. هي المرأة التي تراهن عليها الكاتبة، الأنثى كانت الشخصية المحورية، ككل مرة في كتابات فضيلة الفاروق، وقد كانت أنثاها هذه المرة أكثر من ينادي بالتحرر والتخلي عن العادات والتقاليد المنمّطة، والتي قيدت المرأة في أقفاص ضيقة، وجعلتها مرتبطة بحجب لصيقة بها منذ الولادة، ولكن حتى «باني» في حد ذاتها لم تستطع أن تقف على حياد، فهي تدرك أن اقتلاع مثل تلك الأشياء أمر صعب.. هذا إن لم يكن مستحيلا، نراها هي الأخرى في حرب رمال متحركة بين الدين والانعتاق منه، طبعا هو كغريزة فطرية يصعب استئصاله أكثر من أي شيء آخر..

نراها تحارب موجات التفكير في الخيانة بنفسها، تنزوي من أجل الصلاة والاستغفار، تقرأ القرآن أيضا بحثا عن راحة نفسية ينتهكها الزوج الغريب، هذا الكائن القريب/ البعيد عنها.. «جمعتنا الجدران وقرار عائلي بالي، وغير ذلك لا شيء آخر يجمعنا، فبيني وبينه أزمنة متراكمة وأجيال على وشك الانقراض..».

نعود معها إلى ما قبل هذه اللقطة بكثير، إلى الطفلة الصغيرة «.. إلى شقاوة الثالثة عشرة وما كان يعنيه لي ذلك العمر الذي جعلني أستفيق من حلم الصبي ذي الضفائر الطويلة..» حب الفضول فيها، ونزعة القوة والتمرد جعلاها تدرك أنها امرأة على هامش الحياة الزوجية التي لا يجب أن تعرف فيها أكثر مما يجب وإلا كانت العاهرة المنبوذة..

«اكتشاف الشهوة» هي أكثر رواياتها جرأة على الإطلاق، لكنها كانت الجرأة المبتغاة لوحدها، ربما يفتقد القارئ الكثير من حميميات الفاروق التي كانت تتحف بها مساحات كتاباتها عن الوطن، ومشكل الذات فيها، إذ صارت أكثر بعدا عن عوالمها، ليست لأنها قالت كل شيء، ولكن لأن رقابة ما تترصد بالقرب من كل ما هو ذاتي وشخصي، ارتفعت حتى بسقف الوطن إلى ما هو أبعد من نظرة تراها هي، إذ صار الأمر مجرد رقعة لصيقة بالذاكرة وحسب، لكن منذ متى كان الأدب بمثل هذه المحلية التي نبحث عنها بين الكتب؟

كما في «مزاج مراهقة» تضيع الأنثى هنا أيضا بين رجلين.. لويزة في الحكاية الأولى كانت منشطرة بين حبها لعبد الجليل، و«غيرتها» من توفيق الذي كانت تتمنى لو أنها كانته.. الرجل الذي كانت تتمنى لو أنها هو.. «باني» في الحكاية الثانية تقف طويلا محتارة بين رجلين «إيس» الذي كانت تشتهيه بقوة، وتوفيق الذي تحبه.

لم ترض «باني» براهن الانغلاق الذي فرض على المرأة، كنا نراها تقفز من «تحرر» لآخر.. حتى وان زارتها هواجس معينة كانت تثنيها أحيانا، لكن فكرها المشتعل يشي بأكثر من اقتناع وإيمان بتلك الأفعال، بدأت رحلتها من لحظة انتهاك كان بطلها زوج لا يفهم عنها الشيء الكثير؛ «حقارتي بدأت من هنا. من هذا الزواج الذي لا معنى له، من هذه المغامرة التي لم تثمر غير كثير من الذل في حياتي، وكثير من الانهزامية، والتلاشي، والانتماء..».

صارت تتحرك باطّراد نحو حريتها.. تدخل في علاقات حب من منطلق شهوة كانت تحرّم على الأنثى، غدت إنسانا يعي تماما أنه لا يجب أن يعيش خارج جسده ورغباته، بدأ إيمانها بفعالية سطوة الشهوة يعلو تدريجيا، ومعه راحت تخلق الأجواء الملائمة لمثل هذه الطقوس التي ظنتها لفترة ما مرتبطة بالرجل وحده، وازدادت حدة أسئلتها مع المحيطين بها، فيسكتون خوفا من الفضيحة.. مقابل لامبالاتها، فتعرفت على «إيس»، شرف وتوفيق.

بالكاد تأتي على معظم أوراق الرواية، فترتفع قصة أخرى لا تمت بصلة لحواشي الحكاية السابقة، تطير الشخصيات الأولى فجأة، وتنحني مع منحدر آخر لا نعرف عنه شيئا، لكننا نتآلف معه بصعوبة، وكأننا لا نتقبل حقيقة أن ذاك التحرر كان مجرد وهم غرقت فيه «باني»، في حالة غيبوبة دامت ثلاث سنوات كاملة، راحت فيها مخيلتها الجافة تبحث عن عزاء بعيد يكمن في وقائع متخيّلة، حتى وان كانت تلك الشخصيات حقيقية في الواقع، تكاد تقع في حب جديد بطله الطبيب النفساني الذي يشرف على علاجها، نروح معها فيما بعد في رحلة جديدة من أجل استرجاع ذاكرتها التي غابت ذات حادث فيضان في قسنطينة، فتغيب باريس وحاراتها، نتعثر بوهم وجود شخصيات لبنانية مثقفة كانت تلتقيهم في المهجر بفرنسا.

من كل الشخصيات التي أغوتها.. لم يكن إلا توفيق شخصا من لحم ودم، أما الباقي فقد كان من اشتغال المخيلة النشطة لباني، يعود كالمنقذ في الجزء الثاني من الحكاية.. هو القسنطيني قريب العائلة الذي أحبّها منذ أن كانت في الثانوية بمدينتها الأولى، جمعتهما صدفة جميلة في باريس المتخيّلة، وعاد للمرة الثالثة في الواقع هذه المرة، كملاك كان يحرسها.

كل ما توقعناه من تحرر وانزياح نحو الانعتاق من حصار كبلّت به المرأة كان مجرد خيال، كرد فعل عكسي لشدة الضغط الممارس على هذه المرأة، سواء من الزوج، الوالد أو الشقيق.. كنموذج مصغّر عن سطوة يفرضها المجتمع كاملا.

نهاية الرواية كانت نهاية تقرب من الخيال.. مع أنها لم تكن كذلك كانت بنهاية تشبه نهاية القصص الرومانسية السعيدة، حكايا جعلها واقع الأمر المعقد والمتشابك تنقرض من الواقع إلا نادرا، وقد دخلت نهاية «اكتشاف الشهوة» في ندرة كتب «القصص الجميلة»..

ظهر توفيق فجأة في المستشفى كمنقذ خارق وأعاد لها سعادة كانت غائبة..

طول بال الكاتبة جعلها تترك لنا خيط احتمال فكرة أخرى هو أن ما كان من حوادث متخيلة في باريس قد يكون أيضا واقعا حقيقيا عاشته بالفعل، رمت لنا باحتمال زيارتها لباريس من قبل، أثناء لقاء عابر مع شخصيات تعرفها، كما أنها عاودت استسلامها لمذاق شفاه «إيس» في قبلة «كانت معبرا نحو التحرر». كانت تدفع بالقارئ إلى التساؤل: هل حدث الأمر؟ أم لم يحدث؟.. تراها التقت «إيس» أم لا؟ هل كان التحرر حقيقة أم وهما؟.. الأكيد، فقط، هو أن الفاروق قد خاضت حربها ضد انسحاب المرأة حتى وإن كانت بجرأة تكاد تكون مفتعلة دون ملامسة قوية لـ «خطورة» الموضوع الذي شقت طريقها إليه.

* صحافية من الجزائر

شاهد على

سباعية نقدية

خيري منصور*

■ إذا كان الشعر العربي القديم قد بقي على مر القرون، إبداعا حاضراً، ملهما للناقد كما الشاعر.. فإن النقد القديم لم يحظ بما حظي به الشعر من حضور فاعل ومؤثر، هذا بالرغم من المحاولات العديدة التي قام بها نقاد ومؤرخو أدب معاصرون، لتقديم «كيان نقدي» منهجي من ركام نقدي هائل، منه ما كان وليد زمانه فحسب، ومنه من حددته الأزمنة اللاحقة لما فيه من بذور وإمكانات قابلة للبقاء.

ويبدو أن «ضخامة ديوان العرب» حفزت الشعراء – عبر كل المراحل – إلى غربلة الديوان، إعادة قراءته واختيار نماذج منه، مشروطة بذائقة الشاعر الذي يختار وبحاسته الشعرية ومنحاه العام..

ومن هنا كانت كتب «الحماسة» على اختلاف أصحابها وكذلك «المفضليات» و«الأمالي» محاولات نقدية جريئة فيما تركت كجرأتها في اختياراتها.. ولعل هذه الكتب من المختارات وأمثالها رسخت فيما يشبه «التقليد» في تراثنا الأدبي، وأصبح الشعراء «المحدثون» يحتذون بالأسلاف من الشعراء – النقاد، بتقديم مختارات هي «الأجود» بحسب معايير مرحلتهم.. بحسب نظريتهم في فهم الشعر.

إن القيمة أو إحدى القيم التي أفرزتها عمليات الاختيار من الشعر العربي القديم، هي تيسير قراءة هذا الشعر لدى العربي المعاصر شاعرا وناقدا.. ومواطنا، وتقديم دليل شعري إلى الديوان الضخم، إضافة إلى فتح باب جديد لمقارنة المختارات والتوصل إلى «المناهج» التي تحكمت بها لدى هذا الشاعر أو ذاك..

النقد العربي القديم لم يتح له مثل هذا الاهتمام، بقي مادة كبيرة ومجالا رحبا للتحقيق، وللاستنتاجات الأكاديمية المكرورة، وفي أحسن الأحوال لقي هذا النقد محاولات «لعصرنته» سواء بتأويلات قسرية أو بتفجير إمكانات «النص النقدي» وتسوية طياته الكثيرة المعقدة.

أما النصوص النقدية نفسها، فقط ظلت بعيدة عن تناول القارئ العربي المعاصر، وربما كانت «منفرة» للبعض متوعدة بالاستعصاء على الفهم لدى بعض آخر، ومن أسباب هذا التنفير الأساليب التي قدم من خلالها النقد العربي القديم وتكريس «شكلانية» هذا النقد والذهاب – بإغواء السهولة – إلى أكثر نماذجه سطحية ومفاضلة بين الأجود والأردأ.. إلخ.

وثمة سبب «موضوعي» هو طبيعة اللغة التي كتبت بها النصوص النقدية القديمة وصعوبة هذه اللغة متأتية بالدرجة الأولى من تعود القارئ المعاصر على «لغة» نقدية حديثة، أسست معجمها الخاص بعد أن تعرضت لعمليات تلقيح واسعة بالكتب النقدية المترجمة والتراكيب اللغوية – نصف العربية – في بعض الأحيان – التي نقلت بها تلك الكتب..

***

«نصوص من النقد العربي» للدكتور محمود الربيعي، محاولة جيدة لتقديم مختارات من النقد العربي بمنهج مواز لمناهج الشعراء المحدثين الذين قدموا مختارات من الشعر العربي القديم، ويلاحظ القارئ أن الدكتور الربيعي لم يقل في عنوان الكتاب «نصوص من النقد العربي القديم» واكتفى بالقول.. من النقد العربي، موحيا للقارئ أن هذه النصوص قابلة للتجدد، وبها من عناصر ومقومات البقاء والفائدة ما يجعلها «معاصرة» دون ان يلحقها أي تحوير أو تأويل قسري..

ومحاولة د. الربيعي ليست الأولى في هذا المجال، وإن كانت كذلك فيما يتصل بتقديم «نصوص» مستلة من مصادر نقدية محددة، ورغم احتراز د. الربيعي «المبالغ به» من فهم القارئ لهذه المختارات النقدية على أنها الأفضل أو الأكمل والأكثر استيفاء لعناصر النقد – بمعناه الحديث – رغم ذلك فهو لا يخفي قناعته بأن النصوص النقدية السبعة التي يقدمها هي أولا وأخيرا النصوص التي أقنعته أكثر من سواها وإلا فلماذا اختارها بالذات؟

اختيار الناقد لنصوص أدبية بعينها من الصعب أن يكون موضوعيا، كما أن اختيارات الشاعر المحدث لن تكون موضوعية هي الأخرى، في الحالتين تكون «المختارات» محكومة بفهم وحساسية وقناعات من يقدمها، إنها النسغ الذي ينتسب إليه وعبره يصل إلى القلب، وعبره أيضا يقع على «سلفه» الخاص الممتزج بنسيج الأسلاف..

يقول د. الربيعي نافيا عن نفسه مقاصد معينة في احتفائه بالنصوص المختارة كأن يقال بأنه أراد أن يقارع بهذه النصوص النقد العالمي في كل زمان ومكان، ويضيف أن مثل هذا الهدف كان منزلقا لسواه من الدارسين الذين دخلوا في معارك متوهمة، لكن د. الربيعي سرعان ما يأخذه الحماس ليرى أن ثمة نصوصا نقدية قديمة لو نظرنا فيها نظرة متفحصة لوجدنا أنها لا تعاصرنا فحسب وإنما تقول ما لا نعرفه. من هذه النصوص ما يشير به الآمدي إلى «الدربة» تلك القوة الغامضة التي يتميز بها الناقد عن سواه، يقول الآمدي: ويبقى ما لا يمكن إخراجه إلى البيان ولا إظهاره إلى الاحتجاج، وهو علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة.. إلخ، أو ما يشير إليه الآمدي من مؤهلات الناقد الحق كقوله:

«و قد قيل ليس الخبر كالمعاينة وعلة ذلك بينة واضحة ومعلومة ظاهرة وهي أنه لا يمكنه أن يشاهد بك جميع المعلومات التي اختبرها وعلم علمها منها بملابستها في السنين الطويلة فمن المحال أن يقدر (على أن يصور لك عشرة آلاف فرس أو يصف لك عشرة آلاف جارية أو عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر والأوصاف، فيجعلك مشاهدا لذلك كله في لحظة واحدة..).

أما سبب إغفالنا لما تقوله تلك النصوص فهو إحساسنا نحن أبناء القرن العشرين بتضخم ذواتنا.

وإنصافا للنصوص «الخالدة» وللدكتور الربيعي الذي لم ينصف نفسه وأبناء القرن العشرين معه نقول إن هناك مقولات في النقد وفي غيره، عامة ومرنة تتكرر في كل مرحلة، لكن ما يجد عليها هو التفريعات والمضي عمقا في التطبيق وما يقال عن النقد يمكن أن يقال عن الإبداع – الشعر خاصة – حيث نجد أن الثيمات الكبرى تتكرر في كل عصر، وكأن هناك بعض «الثوابت» في المعاناة البشرية، لكن ما يمنح هذا التكرار ألوانا وإيقاعات جديدة، بل ولادات جديدة هو تنوع أداء الشعراء وتباين مواهبهم وقدراتهم، وبغير هذا التصور سنجد أنفسنا دائما نردد عبارة دوناتوس: «سحقا لمن سبقونا فإنهم قالوا أقوالنا» وقد نضيف «سحقا» أخرى لهؤلاء السابقين لأنهم قالوا ما «سنقوله»..

***

النص النقدي الأول من كتاب فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، يرتكز على النص «المختار» إلى ما سبق واستشهد به د. الربيعي حول ما يقوله الآمدي عن «الدربة».

«و قال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر استحسنه فما أبالي ما قلت أنت فيه وأصحابك. قال إذا أخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف: إنه رديء فهل ينفعك استحسانك إياه؟».

ما الذي كان سيقوله الجمحي لو رأى «العملات المزيفة» على موائد صرافي زماننا؟؟ وأية حيرة واستهجان سيبعثها «الرنين» الكاذب؟

إن نص الجمحي على قصره يستثير إشكاليات نقدية دقيقة، لكنه يمر بها مرورا، منها، البحث عن الفروق بين الأشباه مذكرا إيانا بقولة ذلك الموسيقي الذي اتهم بالسرقة من زميل له، فأجاب: الشبه كبير بيننا إلى الحد الذي جعلكم تدركونه، أما الفروق فدقيقة تفوت أمثالكم، لكأن الموسيقي يريد هو الآخر «صرافا» وهذا ما يعبر عنه الآمدي في «الموازنة» يقول:

«ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمان من كل.. موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدربة الطويلة..

وكذلك الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحدا أو أيهما أجود إن كان معناهما مختلفا».

النص الثاني: لابن قتيبة من كتاب الشعر والشعراء وهو مستل من الجزء الأول من الكتاب ومن صفحات متقاربة أرى أن هذا النص ينجح في تقديم مشهد نقدي مختزل لابن قتيبة ويمكننا بعد قراءته أن نستخلص منه عدة قضايا أهمها:

أولا: الرؤية النقدية العادلة، حيث ينبغي للناقد أن يأتي إلى النص المنقود بنية غير مشوبة بأي غرض آخر، كأن يكتسب النص المبدع قيمة جاهزة لكونه متقدما، أو يفقد هذه القيمة عندما يكون متأخرا.

والجديد عن ابن قتيبة قياسا إلى علماء زمانه هو هذا التجرد يقول:

«فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقديم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو «أنه رأى قائله».

العبارة الأخيرة جديرة بأن يكتب عنها ويستوحى منها الكثير.. فهي توجز الكثير مما يقوله علم النفس أو تقوله خبرتنا نحن الأحياء.. حول الجلال الذي يحيط بالغياب، وحول ما تفعله الألفة والتعود والاقتراب، وهذه كلها قضايا من صميم «النقد» وإن بدت للوهلة الأولى غريبة عنها.

ثانيا: يقدم نص ابن قتيبة تسويغا أبديا للحداثة:

«لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر.. إلخ».

وتسويغ الحداثة أو التحديث لا ينفصل عن مسألة بالغة الأهمية هي الانعتاق من «رؤية» صنمية للماضي، باعتبار النموذج الكامل الصافي ماضويا الضرورة.

ويعبر ابن قتيبة عن النزاهة النقدية بقوله: كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه.

ثالثا: إن الثوابت الشعرية تجد لها متسعا في نص ابن قتيبة بمعنى أن الشاعر ينفصل عن التجربة المعاشة مخليا حيزا للثابت الشعري الذي يتغذى منه الجميع.. فالفرزدق زير نساء وصاحب غزل وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب بينما كان جرير عفيفا «عزهاة» عن النساء وهو مع ذلك احسن النساء تشبيبا، وكان الفرزدق يقول: ما أحوجه «جرير» مع عفته إلى صلابة شعري، وما أحوجني إلى رقة شعره لما ترون.

ويكاد ابن قتيبة أن يقدم تعريفا مفصلا لـ«النظم» باعتباره النقيض الحقيقي للشعر وليس النثر هو النقيض.

«فالمتكلف من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه».

نكتفي بهذه الوقفة عند نصين نقديين من مختارات د. الربيعي لنطرح سؤالا لا بد من طرحه.. هو إلى أي حد كانت النصوص السبعة تمثيلا لتراث العرب النقدي؟ ومن جهة أخرى إلى أي حد يمكن اعتبار هذه النصوص ممثلة لنظريات أصحابها إن كانت ثمة نظريات؟

وفي رأينا أن الإجابة عن أسئلة كهذه، لا تقع على عاتق محاولة د. الربيعي وحسب، وإنما على عاتق محاولات أخرى تقدم نصوصا نقدية وتتيح لنا مقاربتها نصوص الربيعي، وإلا فإن هذه النصوص ستظل وحيدة وناقصة ومجزوءة تقارب فقط بسياقاتها الكبيرة والأصلية التي خلعت عنها.

إن خطوة هذا الكتاب «نصوص من النقد العربي» تكمن إيجابياتها فيما ترسخه أو تحاول ترسيخه من تقليد جديد، يبحث عن العافية في النقد القديم ويقدمها لا كانتقادات مزاجية آنية وإنما ككيانات نقدية تصدر عن رؤيا.

هامش:

النصوص النقدية المختارة في الكتاب للجمحي وابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة والجرجاني والآمدي والقيرواني...

* شاعر وكاتب من الاردن

«عشاق بيّة» للحبيب السالمي بالالمانية

باريس ـ «القدس العربي»:

عن دار «لينوس» في بازل صدرت مؤخرا ترجمة المانية لرواية «عشاق بيّة» للروائي التونسي المقيم في باريس الحبيب السالمي.

انجزت الترجمة المترجمة الالمانية رجينا قاراشولي وصدرت في السلسة التي يديرها هارتموت فاندريش.

على غلاف الرواية نقرأ «بكثير من الدفء، ولكن ايضا بدعابة وسخرية حاذقة وبارعة يصور الحبيب السالمي عالم اربعة رجال من تونس العميقة ويسبر بذكاء أغوار نفوسهم. ان هذه الرواية المبنية باتقان والمكتوبة بلغة شعرية وواقعية في نفس الوقت هي نشيد للحياة والحب».

وتجدر الاشارة الى ان «عشاق بيّة» قد ترجمت الى الفرنسية وصدرت عن دار «اكت سود» الباريسية المعروفة.

في اليوم العالمي للشعر

أكرم قطريب*

الليلةلن أكون مخموراً تلك
ولن أطلق النار على نفسي
حين يعود خضر الآغا إلى رشده
وهو يلتقط صورة لدمشق
من فوق جسر فيكتوريا
أو هيثم قطريب الذي ترك زنزانة صيدنايا
وسراويله تغرق في بحر الرّجز
لتسع سنوات أخرى
قاسم حداد ولا تكفيه البحرين
يجدّف في البحر الإيامبي مع شكسبير
وشعراء التروبادور
عبدالله ونوس بعد كأس ثالثة
سيصير عمر الخيّام وهو يبنيّ السهرة
من نجوم قلعة آلموت
عناية جابر التي تلحّ عليّ أن آتي
لأسكن في لبنان
الأبيقورية كي يرميني عباس بيضون ،
بصلعته
من أعلى شرفة في بناية الشعر الحديث
وهو يشرح لي الفرق
بين الغيوم وبرنار نويل

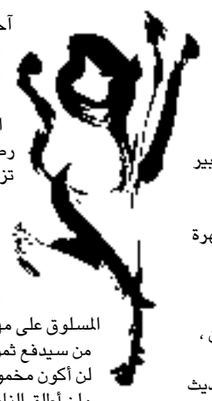

آخرهاالبطن المنتفخة للفتاة
الممددة إلى
في لوحة رياض الشعار

الأمس الذي هو مجرد رائحة
رطبة
تزكم الأنف
تايتانك الذاهبة إلى أميركا
بعد خمس دقائق
الشيء المضحك الذي يتبخر
والذكريات السود
التي في رؤوسنا كالإوز
المسلوق على مهل
من سيدفع ثمن الذهاب دون الإياب
لن أكون مخموراً تلك الليلة
ولن أطلق النار على نفسي

* شاعر من سورية يقيم في أميركا